المعلم المصري الأول

مُحَمَّد فريد أبو حديد

كان العصر لا يعرف الإستقرار، وكانت أسرة الطفل «علي» لا تعرف الإستقرار كذلك. كان أبوه الشيخ مبارك من أسرة متواضعة تعرف باسم «المشايخ» في قرية برنبال مديرية الدقهلية. وإضطر الأب أن يهاجر من قريته عندما ضاقت به الحال فيها ونزل في قرية أخرى بمديرية الشرقية وكان ولده علي طفلًا في السادسة من عمره. ولكن قرية الحماديين التي حل بها لم تكن أوسع رزقًا من قريته الأولى فحمل أهله مرة أخرى وإرتحل في الأرض حتى نزل في نجع من نجوع قبيلة (السماعنة) وإتخذ لنفسه ولأسرته خيمة يعيشون فيها كما يفعل أهل القبيلة. ومن حسن حظه أن (السماعنة) كانوا في حاجة إلى فقيه يعلمهم الدين فوجد الشيخ الطيب لأول مرة في حياته مكانًا يستقر فيه، وأصبح بعد قليل موضع حب القبيلة وإكرامها.

وكان الطفل علي يمرح في الحقول مع أطفال النجع ولا يحب الذهاب إلى المكتب بالرغم من نصائح والده وبكاء أمه لأنه كان لا يجد في المكتب إلا العصا والجمود الممل والحرمان من الضوء وخضرة المروج. وإجتمع حوله ذات ليلة أبواه وإخواته البنات السبع وأخذوا ينصحونه ويبنون له فائدة التعليم وهو يصر على الإباء ولا يبالي بالتهديد ولا بالدموع. وسأله

ابوه آخر الأمر عما يريد أن يصنع بنفسه فأجاب في بساطة: «لا أحب أن أكون فقيهًا، وإذا كان ولابد من التعلم فإني أريد أن أكون كاتبًا نظيفًا».

ونزل أبوه على إرادته فأرسله إلى كاتب في القرية المجاورة ليعده للمستقبل الذي يريده. وأقام الطفل في بيت ذلك الكاتب بين عياله الكثيرين من زوجاته الثلاث، فكانت حياته الجديدة أقسى عليه من الذهاب إلى المكتب. كان يبيت في كثير من الأحيان يتضور جوعًا ثم يخرج في الصباح الباكر مع الكاتب ليتمرن على أعماله فيقضي كل وقته في خدمة الرجل ولا ينال منه شيئًا من التعليم.

وحدث يومًا أن سأله الكاتب أمام ناظر القسم عن حاصل ضرب الواحد في الواحد فأجابه إنه: «إثنان»، فما كان من الرجل إلا أن قذفه بمقلاة بن كانت أمامه فشج رأسه وسالت دماؤه، فإنتهز علي المسكين فرصة خروج الناس إلى مولد السيد البدوي، وإندس بينهم خارجًا من القرية وسار في الطريق يسأل الناس عن قرية المطرية التي تقيم فيها خالته. ولم يقو جسم الطفل الصغير على تحمل مشقة السير وقضاء الليالي في العراء، فمرض في الطريق مرضًا شديدًا في قرية (صا الحجر) وأشفق عليه رجل من أهل القرية فآواه عنده حتى شفي بعد أربعين يومًا. ثم بلغه أن والده جاء إلى القرية ليبحث عنه فتحامل على نفسه وهرب ذاهبًا إلى الطريق مرة أخرى حتى عاد إلى قريته الأولى (برنبال) حيث كان يقيم أخ له من أبيه.

وعرف أهله مكانه بعد حين فذهبوا إليه وإلتفوا حوله مرة أخرى ليتشاوروا فيما يعملون من أجله وإستقر رأيهم على أن يدخلوه في خدمة كاتب المساحة ليتعلم منه صناعته.

وإرتاح علي في أول الأمر مع ذلك الكاتب، وكان يفرح بالنقود القليلة التي كان الرجل يهبها له من الرشاوي التي يجمعها من الناس، ولكنه كان طفلًا صغيرًا لا يعرف أن المرتشي لا يحب أن يتحدث الناس عن أسراره، فكان يثرثر مسرورًا عن النقود التي تصل إلى جيبه مما يجمعه الكاتب من أهل القرى. فما كاد الرجل يسمع ما يقوله الطفل حتى طرده من خدمته. فعاد علي إلى قريته حائرًا لا يعرف لنفسه وجهة حتى سعى له أبوه مرة أخرى فألحقه بخدمة كاتب آخر في مأمورية (أبى كبير).

وكان في هذه الفترة قد أتقن الكتابة، فعينه الكاتب مساعدًا ليبيض له دفاتره بمرتب خمسين قرشًا في الشهر، وجعله يقيم معه في بيته. ولكن مضت أشهر ثلاثة ولم يعطه الكاتب مرتبه محتجًا بأنه يطعمه في بيته، فغضب علي وعزم على أن يأخذ حقه بيده وأخذ من الأموال التي حصلها الكاتب أجر الشهور الثلاثة، وكتب بها إيصالًا جعله في كيس التحصيل وبعث بذلك إلى الرجل، فما كان من الكاتب إلا أن دبر له مكيدة لينتقم منه، فسعى عند حاكم المدينة لإدخاله في الجندية. وفي اليوم التالى قبض الحاكم عليه وألقى به في السجن وتركه هناك مدة عشرين يومًا ذاق فيها مرارة الظلم الرخيص والجوع والأذى، ولم يجد من أحد رحمة إلا من السجان الذي رق له لصغر سنه فسعى في الإفراج عنه وساعده على

الإتصال بخادم مأمور زراعة القطن في (أبي كبير) وفي نظير قطعة من الذهب قيمتها عشرون قرشًا سعى ذلك الخادم حتى أوصله إلى مأمور الزراعة.

وكان مأمور الزراعة رجلًا حبشي الأصل إسمه عنبر أفندي يمتاز بالوداعة وطيبة القلب، فرتب للصبي خمسة وسبعين قرشًا في الشهر كما رتب له جراية من الطعام كل يوم وأدخله في خدمته. ولأول مرة في حياته وجد علي شيئًا من الإطمئنان والراحة وبعض النقود في جيبه.

ولكن المخاوف والآلام التي قاساها في السجن كانت تجعله دائم الخوف من غضب سيده إذا بدا له أن يغضب عليه في يوم من الأيام، وسمع يومًا وهو في مجلس عنبر أفندي أن هناك مدرسة فتحها الوالي إسمها مدرسة «قصر العيني» لتعليم الأولاد الخط والحساب واللغة التركية لكي يصيروا موظفين في الحكومة بعد تخرجهم. فسأل في سذاجة: «أهذه المدرسة تقبل أبناء الفلاحين؟».

ولما عرف أن ذلك ممكن لمن يساعده الحظ خفق قلبه أملًا وأخذ يجمع كل ما يستطيع جمعه من أخبار تلك المدرسة ويسأل عن طريق الوصول إليها والمسافة التي يجب عليه أن يقطعها حتى يصل إليها وأسماء البلاد التي في الطريق، حتى إطمأن إلى أنه عرف مايكفي.

وفي ذات يوم إستأذن عنبر أفندي في زيارة أهله عازمًا على أن يبدأ في تحقيق أمنيته. ولكن أهله لم يوافقوه وأخذت أمه تبكي وتستعطفه حتى

لا يفارقها، وإضطر إلى البقاء في النجع يرعى قطيعًا من الغنم. وبقيت صورة المدرسة تعاوده في ساعات ليله ونهاره حتى إنتهز فرصة نوم النجع في ليلة من الليالي وخرج من بين الخيام متسللًا وهو خائف يترقب، و كان هذا آخر عهده بالإقامة مع أبويه.

وانتهى به السير في الطريق إلى قرية (منية العز) وكان فيها مكتب يعد الأولاد للدخول في مدرسة القصر العيني فسارع إليها وما زال حتى إلتحق بها، وأقبل على الدراسة بحماسة المجاهد في سبيل تحقيق غاية كبرى.

ولقفي مدة الدراسة بهذه المدرسة عقبات أخرى كان يواجهها واحدة بعد واحدة ويتخطاها منتصرًا، وكانت العقبة الأخيرة منها يوم جاء مفتش التعليم ليختار التلاميذ اللائقين للإلتحاق بمدرسة قصر العيني، وواتاه حسن الحظ ففاز آخر الأمر بأمنيته وأصبح تلميذًا في المدرسة التي تعلق قلبه بها. و كانت سنه عند ذلك لا تزيد على إثني عشر عامًا. ولكن مفاجأة قاسية كانت تنتظره بمدرسة قصر العيني.

ما كاد يدخل هذه المدرسة المأمولة حتى دبت الخيبة إلى قلبه وكادت تحطم أمله. كانت لا تزيد على معسكر يتعلم فيه الأولاد السير العسكري، وكان المعلمون يضربون التلاميذ ويوجهون إليهم أنواع الإهانة والسب بغير حساب. وكان الفراش الذي ينامون عليه من حصير الحلفاء، والطعام الذي يقدم لهم تافهًا كريه الطعم، ولم يجد الصبي مع هذا كله شيئًا مما كان يطمح إليه من التعليم. فلم يلبث أن مرض مرضًا شديدًا كاد يودي بحياته، وإجتمع عليه ضعف المرض وخيبة الأمل وألم الندم على ترك أهله بغير

فائد. ففكر في الهرب مرة أخرى ولكن إلى أين؟ وماذا تكون نتيجة هربه من المدرسة؟ كانت عقوبة الذين يحاولون الهرب كافية لجعله يرجع عن أية محاولة من هذا النوع لأن أهل التلميذ الهارب كانوا يساقون إلى السجون ويتعرضون لألوان شتى من الإهانة والعذاب.

وقد جاء أبوه ذات يوم لزيارته وعرض عليه أن يساعده على النجاة من تلك المدرسة، وكاد يمهد له سبيل الهرب بالإتفاق مع بعض خدم المدرسة. ولكن علي أبى أن يطيعه خوفًا عليه من عواقب هذه المحاولة. ثم جاءت اللحظة الحاسمة في حياة علي مبارك عندما نقلت المدرسة من قصر العيني لتجعل في مكانها مدرسة الطب الجديدة التي ما تزال إلى اليوم هناك. وأختير للمدرسة الأولى مكان آخر في (أبي زعبل) بعيدًا عن القاهرة فخيل إلى الصبي أن كل شيء قد إنتهى إلى الخيمة الكاملة. ولكن المقادير سانت له هنا رجلًا كان له الفضل في توجيه حياته وجهة أخرى وحددت له طريقه في الحياة تحديدًا شاملًا. كان الناظر الجديد الذي أختير لمدرسة (أبي زعبل) رجلًا له ضمير إنسان وقلب مؤمن بالوطن وهو إبراهيم بك رأفت. ولاشك أن إعجاب الصبي بناظره الجديد ترك في نفسه أثرًا عميقًا جعله يتجه بكل قلبه إلى تقديس وظيفة المعلم المخلص.

كان إبراهيم رأفت يجمع المتأخرين من التلاميذ ويتطوع بالتدريس لهم في فرقة خاصة، وكان من بينهم علي مبارك ومن الدرس الأول بدأ الصبى يتغير وينظر إلى مدرسته نظرة أخرى كلها أمل وكلها حماسة. وبعد قليل تحول علي مبارك من تلميذ متخلف بائس إلى تلميذ آخر نشيط مبتهج ولم

ينس فيما بعد إنه مدين لعطف ذلك الأستاذ الجليل وإخلاصه في أداء واجبه فكان يبذل جهده عندما صار معلمًا أن يهب كل عطفه وكل نشاطه لتلاميذه.

وبعد أربع سنوات تخرج علي مبارك في مدرسته ودخل في مدرسة (المهندسخانة) ببولاق مخلفًا وراءه الطريق المملوء بالأشواك. وفي خمس سنوات أخرى أتم دراسته العليا، و كان في طليعة المبرزين من نجباء خريجي مدرسة الهندسة، فأوفد في بعثة علمية إلى فرنسا.

ولكن الشاب إبن العشرين كان أكثر من شاب طموح يشق طريقه في الصخر والشوك، لأنه لم ينس عند سفره إلى فرنسا أن يوصي بقسمة مرتبه إلى نصفين أحدهما لوالده الشيخ والثاني لنفقته الخاصة في بلاد فرنسا، وكان كل مرتبه مائتين وخمسين قرشًا كل شهر.

وامتدت دراسة الشاب إلى ست سنوات في فرنسا، وكانت سنوات عريضة غزيرة، مليئة بالدرس والملاحظة والنمو. ولما عاد إلى وطنه بعد ذلك عين مدرسًا في مدرسة (طرة) وذلك في أيام الخديو عباس الأول.

وكان الخديو عباس الأول غريب الأطوار يجمع بين ضيق الأفق والغطرسة، وكان من أول ما بدا له أن يغلق معاهد التعليم التي أنشأها جده مُحَمَّد علي. فأمر بأن (يفرز) تلاميذ المدارس جميعًا ليختار منهم عددًا محددًا بجمعهم في مدرسة واحدة ويغلق أبواب المدارس الأخرى.

واختار هذه المدرسة الوحيدة في (أبي زعبل) وسماها المدرسة

(المفروزة). وكان حزن علي مبارك عظيمًا عندما رأى تلاميذه يفرزون وترسل منهم مجموعة إلى (المفروزة) ولم يبق له (في مدرسة طرة) إلا عدد قليل من كبار السن المتخلفين (تحت التصفية). فكادت عزيمته تنهار من هذه الصدمة لولا إنه وطد العزم على أن يبذل كل ما يملك من قوة وإرادة في تعليم أبناء وطنه أيًا كانوا.

وهزه عند ذلك الحنين إلى وطنه، ولم يكن رأى أمه منذ فارقها من سنين طويلة فعزم على الذهاب إلى قريته ليلم بأهله حينًا. وكانت زيارته تشبه المواقف الخيالية في الأساطير القديمة، فقد طرق الباب وسمع صوت أمه تنادي من وراء الباب: «من أنت؟»، فأجابها: «أنا علي!» وفتح الباب الضخم ووقفت الأم أمامه تنظر إليه ولا تصدق عينيها. كان الشاب في لباسه الأنيق والسيف مدلى إلى جانبه وقد أصبح طويلًا ممشوق القوام يلمع وجهه بالقوة والإبتهاج. ففتحت له الأم ذراعيها وعانقته عناقًا حارًا وهي تبكي ثم وقعت مغشيًا عليها.

ولما أفاقت جعلت تبكي حينًا وتضحك حينًا ثم أخذت تزغرد وتتكلم وهي تحسب إنها في حلم سعيد. وأقبل أهل البيت على صوتها وإجتمع الجيران من كل جانب حتى إمتلأ بهم البيت ولم ينصرفوا حتى طلع عليهم الصباح.

كانت تلك أول مرة ترى فيها القرية ولدًا من أبنائها يعود إليها وهو يلبس لباس السادة الحكام! وأرادت الأم أن تطيع سعادتها وتولم وليمة عظيمة لجيرانها إحتفالًا بعودة وحيدها على هذه العودة التي لم يحلم أحد

من أهل القرية مثلها. ولكنها لم تجد معها شيئًا تعد به الوليمة وظهرت الحيرة في وجهها وفي حركتها المضطربة، ولاحظ الشاب حيرة أمه فأخرج لها عشر قطع من جنيهات الذهب لتحقق بها رغبتها.

وعاد علي مبارك إلى ميدان العمل فأسندت إليه وظيفة بعد أخرى، ولكنه كان لا يرتاح إلا إلى عمل واحد وهو التدريس. وكان سروره عظيمًا عندما أسندت إليه نظارة المدرسة (المفروزة) وهو يقول في ذلك:

«وفي مدة نظارتي للمدرسة كنت أباشر تأليف كتب المدارس بنفسي مع بعض المعلمين، وجعلت بها مطبعة حروف ومطبعة حجر طبع فيها نحو ستين ألف نسخة من كتب منوعة»..وقال أيضًا: «ولكن ذلك لم يشغلني عن إلتفاتى للتلاميذ في مأكلهم ومشربهم وملبسهم وتعليمهم وغير ذلك، وكنت أباشر ذلك بنفسي حتى أعلم التلميذ كيف يلبس وكيف يقرأ وكيف يكتب، وألاحظ المعلم كيف يلقي الدروس وكيف يؤدب التلاميذ ولا يمضي يوم إلا وأدخل عند كل فرقة وأتفقد أحوالها..»

ولكن جزاء الشاب على هذا الإخلاص في أداء عمله كان تجربة مرة قذفت به بعيدًا عن ميدان التعليم وذلك أن الخديو غضب عليه فجأة على أثر وشاية دنيئة، فأمر بإرساله مع الجيوش المحاربة إلى الدولة العثمانية للإشتراك في حربها مع روسيا. وكان عند ذلك لم يتجاوز الحادية والثلاثين من عمره. وكان في وداع تلاميذه له عند مفارقته لهم عزاء كاف له. وقفوا جميعًا على شاطىء النهر ليشيعوه إلى السفينة التي ستنقله إلى الإسكندرية. ولم يملك التلاميذ أعينهم من البكاء ولم يستطع علي مبارك أن يقاوم شعوره

فإنحدرت الدموع على وجهه كذلك. وسافر في رحلته الطويلة بنفس ثابتة راضية لأنه سيرى بلادًا لم يرها من قبل وسيقف في مواقف جديدة لم يقفها من قبل وسيجرب تجارب أخرى تزيده معرفة وخبرة.

وإنتهز فرصة وجوده بإستانبول مدة أربعة أشهر فتعلم اللغة التركية، وأقام في بلاد (القرم) مع الجيوش المحاربة عشرة أشهر إنتقل بعدها إلى بلاد الأناضول فأقام في إقليم وعر جبلي شديد البرد وكان ذلك في فصل الشتاء. فكثرت إصابات المجندين بالأمراض الناشئة عن البرد الشديد، وأخذ علي مبارك على نفسه أن يتعهد أمور المرضى بنفسه لأنه لم يجد هناك أحدًا آخر بتعهدهم.

فأخذ يجمع الأموال تبرعًا من الناس، ولما لم يجد أحدًا من الأطباء يساعده في عمله الإنساني إختار رجلًا ممن لهم خبرة بالعلاج على طريقة أهل الإقليم وشاركه بنفسه في خدمة المرضى. وكانت عنايته وإخلاصه في هذه الخدمة كافية للتعويض عن جهله وجهل شريكه بفنون العلاج. فأثمر المستشفى ثمرة طيبة جعلت أهل الإقليم يكتبون له وثيقة يسجلون فيها إعترافهم بحسن صنيعه. ولكنه عاد إلى مصر بعد هذا الجهاد الطويل ليستقبله مأزق شديد كان له أثر عميق في نفسه الحساسة. ولكي نعرف سر ذلك المأزق لا نجد مفرًا من التحدث قليلًا عن حياته الخاصة.

كان علي مبارك قد تزوج عقب عودته من بعثته في أوربا بإبنة أحد مدرسيه في المدرسة الثانوية، عندما توفى عنها أبوها ولم يكن لها في الحياة من يعولها. وكانت زوجة طيبة وفية بذلت له جزاءه من السعادة في حياتهما

المشتركة، ولسوء الحظ ما لبثت حتى عاجلها الأجل بعد قليل. وحزن عليها حزنًا شديدًا جعله يعزف عن الزواج حينًا طويلًا، ولكنه تزوج مرة ثانية من إحدى بنات الأعيان وكانت وارثة تملك ثروة كبيرة، فوق ما كانت عليه من الجمال. وحاول الشاب جهده أن يكون زوجًا شهمًا فأحسن معاشرتها وتعفف عن أموالها ولكنها كانت تعامله مثل طفلة مدللة. وكان أهل الزوجة لا ينسون أنه من أسرة قروية وإنه فلاح وإبن فلاح برغم ما كان عليه من النبوغ في العلم وما إمتاز به من كريم الخصال. وبدأت الأحاديث السامة تفسد العلاقة بين الزوجة الصغيرة الغريرة وزوجها الشاعر بكرامته وخلا الجو لأهلها في مدة غيابه في بلاد تركيا فأوغروا صدر المرأة على زوجها، حتى إذا ما عاد من سفره الطويل وجد نفسه هدفًا لمكيدة دنيئة واسعة النطاق لم تلبث أن إنتهت بالفراق. ولم يقنع أصحاب المكيدة بذلك بل سعوا عند الخديو لفصله من خدمة الحكومة وتم لهم ما أرادوا. ويقول علي مبارك عن نفسه في هذا الموقف: «كانت حالتي بعد سبع سنين من عودتي من أوربا مثل حالتي عند أول عودتي منها وذهب كل ما كسبت من الأموال وضاع كل ما شغلت من المناصب ولم يبق بالخاطر إلا ما فعل الناس معي من خير وشر وما أكسبني الزمان من صدماته وغرائب تقلباته».

وعزم على الذهاب إلى الريف ليحيا هناك بين أهله ويرتزق من كده وعمله كما يرتزقون. ولكنه لم يلبث أن طلب لخدمة الحكومة مرة أخرى فتقلب في وظائف مختلفة لم يشعر في واحدة منها بالإطمئنان أو الرضى. ثم هيأت له الظروف أن يعود إلى الوظيفة التي يحبها من أعماق قلبه وذلك

عندما كان مسافرًا مع الخديو سعيد في مريوط، وأخذ الخديو يتحدث إلى من حوله عن تعليم الضباط وصف الضباط، وأخذ يسألهم عمن يريد منهم أن يتطوع لتعليمهم. وكانت دهشة الجميع عظيمة عندما تقدم علي مبارك متطوعًا ليكون هو معلمهم. وهو يقول في هذا عن نفسه: «كيف لا أرغب في إنتهاز فرصة تعليم أبناء الوطن وبث فوائد العلوم فيهم؟» وإتخذ مدرسة في خيام متنقلة مستخدمًا كل ما يتهيأ له من الوسائل للنجاح في تعليمه. ولم يقتصر في مدرسته المتنقلة على تعليم القراءة والكتابة والحساب بل علم تلاميذه الهندسة والفنون العسكرية والإستحكامات وسوق الجيوش وطرق الحرب.

ولكن عصر سعيد المضطرب قذف به بعد قليل إلى الخارج فوجد نفسه عاطلًا من الوظيفة وإضطر إلى أن يرتزق بالإشتغال بالتجارة. ونجح في هذه المرة نجاحًا عظيمًا حتى إنه فكر في إنشاء شركة تجارية لإنشاء المنازل وبيعها.

ثم تولى الخديو إسماعيل بعد موت سعيد، وكان من أول أعماله إعادة علي مبارك إلى خدمة الحكومة وعهد إليه بنظارة القناطر الخيرية، وكان يكل إليه من الأعمال ما يحتاج إلى البراعة في فنون الهندسة. وبعد ست سنوات من أعمال هندسية مختلفة أضاف إليه إسماعيل إدارة ديوان المدارس وكانت سنه عند ذلك ستة وأربعين عامًا. فوثب الرجل إلى فرصته بحماسة تدعو إلى العجب والإعجاب معًا. كانت وثبته تلك هي نقطة التحول في حركة التعليم بمصر ومن تلك اللحظة وضع الأساس الأول للتعليم الذي نعرفه

اليوم وهو يحكي عن نفسه قائلا: «كانت كثرة أشغالي لا تشغلني عن الإلتفات إلى ما يتعلق بأحوال التلاميذ والمعلمين فكنت كل يوم أدخل عندهم بكرة وعشيًا عند غدوي من البيت ورواحي إليه وأعملت فكري فيما يحصل به نشر المعارف وحسن التربية».

ثم قال أيضًا: «وقد تأسس هذا المشروع وثبت وسرت فيه إلى أن إنفصلت عن المدارس وحصلت منه على نتائج حسنة».

وأنشأ مطبعتين لطبع الكتب المدرسية كما أنشأ دار الكتب المصرية الأولى ليرجع إليها المعلمون، وجمع فيها الكتب القديمة الثمينة المتفرقة في المساجد وغيرها. ومما يسترعي النظر إنه أنشأ لأول مرة في مصر معملًا للعلوم جمع فيه آلات العلوم الطبيعية والرياضية ليكون عوًنا للمعلمين على جعل الدراسة عملية قائمة على التجربة.

وقد إهتم ببناء المدارس وإصلاح ما يحتاج منها إلى الإصلاح، وكان بذلك رائدًا للعصر الحديث في التعليم، ولعل أكبر مآثره في التعليم إنشاؤه لدار العلوم حتى يعد للمدارس من تحتاج إليهم من المعلمين الصالحين تمهيدًا للجهاد في نشر المدارس في ربوع البلاد لأنه كان معلمًا أصيلًا يعرف أن كل محاولة في نشر التعليم بغير إعداد المعلم الصالح لا تجدي البلاد شيئًا.

وقد شجع الشبان من خريجي المدارس العالية على الإشتراك في التعليم، فكان يختار خريجي مدارس المهندسخانة والمحاسبة والإدارة ليكونوا

مساعدين للمدرسين حتى يستطيعوا أن يشتغلوا بالتدريس بعد أن يكتسبوا المران الكافي. وكان في الوقت الذي يجاهد فيه هذا الجهاد النشر التعليم وإرساء أساسه يبذل جهدًا آخر كبيرًا في الأعمال الهندسية، فله الفضل في تجميل القاهرة وميادينها. وكان هو الذي يقوم بالإتفاق مع الشركات الأجنبية التي أدخلت النور والماء لأول مرة إلى بيوت المدينة.

في هذه الأثناء كان الشاب علي مبارك قد صار كهلًا تجاوزت سنة الرابعة والخمسين، وبدأ يحس عبء السنين وأثر الجهاد المضني وتجمعت عند الأفق في الوقت نفسه سحائب سود فيها برق ورعد تنذر بهبوب عاصفة هوجاء.

وذلك أن الأزمة المالية المشئومة كانت قد بدأت تهز قواعد حكم إسماعيل ولم تلبث أن عصفت به بعد قليل. ومع إنه أصبح ناظرًا لديوان المعارف في الوزارة التي أنشأها إسماعيل عندما إشتدت الأزمة فإنه كان يحس أن جهاده الحقيقي قد إنتهى. حقًا إنه أنشأ في مدة وزارته بعض مدارس ممتازة لتكون نماذج للمدارس الجديدة مثل مدرستي طنطا والمنصورة، وحقًا أنه بذل جهده في نشر التعليم الحديث في المدن والقرى، ولكن إضطراب أمور الحكم كان يفرض عليه قيودًا لا طاقة له بها. وأخيرًا قامت الثورة العرابية ثم أعقبها الإحتلال البريطاني فوقفت حركة إصلاح التعليم ثم بدأ الإحتلال الإنجليزي يفرض سياسة أخرى غير السياسة التي وضع أساسها علي مبارك، وكانت تختلف كل الإختلاف عما كان يقصده معلم مصر الحديثة الأول.

وقد أراد الشيخ وهو في سن السادسة والستين أن يعتزل الوظائف ويعود إلى قريته ليقضي ما بقي من عمره بين حقول الريف الخضراء التي أحبها منذ كان طفلًا وتحت أشعة الشمس اللامعة التي كان في صباه يمرح في فيضها مع لداته من أبناء الفلاحين الذين لم ينس يومًا أنه واحد منهم وأن أعظم واجب عليه هو أن يعلمهم ويسمو بهم إلى مرتبة البشرية العليا. ولكنه لم يتمكن من هذه الراحة التي يستحقها، فقد دعاه توفيق ليكون ناظرًا لديوان المعارف في عهد الإحتلال، وما كان أمر عودته إلى ذلك الديوان في ظلال الإحتلال. ولم يستطع أن يتخلف عن الدعوة ولكن كلماته التي سجلها بقلمه تنم عما كان في نفسه من الحسرة والألم والخيبة. فقد قال: «تركت القرية عندما طلبت لهذه الخدمة وأخذت في تأدية ما فرض علي قيامًا بحق وطني..وها أنا الآن قائم بهذا الأمر على حسب الطاقة بقدر الإمكان والله المستعان!».

فكان مثاله كالجندي الذي لا يدع العلم يهوي من يده حتى يخر وهو لا يزال في يده..وأدركه الأجل بعد أربع سنوات مخلفًا وراءه إسمًا خالدًا كأول معلم مصرى خالص جاهد من أجل رفعة مصر عن الطريق الطبيعي لرفعتها–التعليم.

ولكنه خلف وراءه كذلك معنى خالدًا آخر لأنه هو الطفل الفلاح الذي كافح في طريق من الأشواك حتى عرف آخر الأمر أنه خلق ليكون معلمًا لأبناء وطنه. ومنذ تلك اللحظة التي عرف فيها رسالته إتجه بكل قلبه وكل عزيمته وكل إخلاصه إلى التعليم حتى مات وقلبه خافق من أجل تعليم أبناء وطنه.